

## رؤف عباس والتجربة اليابانية

د/إسماعيل محمد زين الدين

### تقديم

تعود اهتمامات رؤف عباس - رحمه الله - بدراسة تاريخ المجتمعات الآسيوية بصفة عامة والمجتمع الياباني بصفة خاصة إلى منتصف ستينيات القرن العشرين، فبعد مرور شهر واحد من حصوله على درجة الماجستير (1966)، تعرف رؤف عباس إلى باحث ياباني كان يقضى عامين بمصر لجمع المادة العلمية والاتصال بالأساتذة المصريين، وكان نشاطه العلمي بالقاهرة تحت إشراف الدكتور محمد أنيس رحمه الله وقد أعلمه برسالة رؤف عباس عن الحركة العمالية، ومن ثم فقد حرص على لقائه. وكان هذا الباحث يعمل بمعهد لغات آسيا وأفريقيا وثقافتها التابع لجامعة طوكيو للغات الأجنبية. وقد انتهت مهمته العلمية بعد هذا اللقاء بثلاثة شهور (مارس 1967).

وفي إبريل عام 1969م جاء باحث ياباني آخر إلى القاهرة في مهمة علمية بين القاهرة ولندن مهمتها امان وينتمى هذا الباحث إلى "معهد اقتصاديات البلاد النامية بطوكيو"، وكانت لديه معلومات سابقة عن رؤف عباس من زميله الباحث الياباني السابق. وقد التقاه رؤف عباس بصحبة محمد أنيس بمركز تاريخ مصر المعاصر، وتولى الدكتور رؤف مهمة الإرشاد العلمي للباحث الزائر الذي كان مهتماً بالتاريخ الاجتماعي، وقبل أن ينهى الباحث مهمته بالقاهرة فاتح رؤف عباس في دعوته زميلاً زائراً بمعهد لمدّة عشرة أشهر للاشتراك في حلقة بحثية لدراسة التطور الاقتصادي والاجتماعي بين مصر واليابان في القرن التاسع عشر، يشارك فيها مجموعة من الباحثين اليابانيين المتخصصين في تاريخ الشرق الأوسط وتاريخ اليابان. وقد طلب رؤف عباس إرجاء الدعوة إلى ما بعد حصوله على الدكتوراه وشغله لوظيفة مدرس. وبالفعل تلقى الدعوة فور حصوله على الدكتوراه في

يناير 1971م، فطلب إرجاءها لمدة عام وهو ما تم بالفعل، فسافر إلى طوكيو فى أبريل 1972م فى مهمة علمية مدتها عشرة أشهر.<sup>1</sup>

كانت هذه المهمة العلمية - على حد قوله - فتحاً جديداً لرؤوف عباس، أتاحت له الاحتكاك بمجتمع أجنبى له ثقافته المتميزة، كما أتاحت له الاحتكاك بمجموعة من الباحثين الذين استضافهم المعهد - معهد إقتصاديات البلاد النامية - جاءوا من أمريكا وبريطانيا وتايلاند والهند. وكان الحوار بين أولئك الباحثين يدور حول القضايا المنهجية والتنمية بمختلف أبعادها فى العالم الثالث فى ظروف الحرب الباردة، وهو ما دفع رؤوف عباس إلى أن يوسع قراءاته حول المنهج والتنمية وقضاياهما، وأحوال العالم الثالث من منظور مقارن.

وتأسيساً على ذلك، فقد تعرف رؤوف عباس فى اليابان على الفكر النقدى الماركسى بعمق كما قدمه "موريس دوب"، وحرص على نقل كتابه دراسات فى تطور الرأسمالية إلى اللغة العربية وقد نشر بالقاهرة عام 1979م وتعرف إلى فكر كل من كارل فينتوجل حول تطور المجتمعات النهرية، وروستو حول مراحل التطور الإقتصادى التى عارض بها الماركسية، كما تعرف إلى فكر "ماكس فيبر". ولم يكن تعرفه إلى تلك الأفكار مجرداً، بل كان مقترناً بقراءة دراسات اهتمت بتطبيق بعض هذه الأفكار وأخرى عنيت بنقدها. فكان له أعمق الأثر فى تكوينه وإنتاجه العلمى فى العقدين التاليين.<sup>2</sup>

### اليابان فى عصر مايجى

ولما كان موضوع الحلقة البحثية على مدى الشهور العشرة يدور حول التطور الإقتصادى والاجتماعى فى مصر واليابان فى القرن التاسع عشر من منظور مقارن، لذا حرص رؤوف عباس على أن يكتف قراءاته حول تاريخ اليابان فى تلك الفترة، فتشعبت قراءاته وتعمقت فى تاريخ اليابان فى القرن التاسع عشر، وتأصلت حتى أثمرت أول دراسة علمية باللغة العربية كانت موضوع كتابه "المجتمع اليابانى فى عصر مايجى 1868 - 1912م" الذى نشر بالقاهرة عام 1980م.

<sup>1</sup> مشيها خطى، ص 87، وقد إمتدت المهمة العلمية ستة أشهر أخرى.

<sup>2</sup> وكان الدكتور رؤوف عباس قد إنتهى من ترجمة كتاب (اليوميات والشهادات) عام 1975، وصدر فى عام 1977 من مكتبة الخانجى بمصر.

ويذكر رءوف عباس الأسباب التي حدثت به لتأليف هذا الكتاب، وهو افتقار المكتبة العربية التاريخية إلى الدراسات الخاصة ببلدان آسيا عامة والشرق الأقصى خاصة، ومن هنا كان اهتمامه بدراسة تاريخ اليابان الحديث فى القرن التاسع عشر، وقد تجلى ذلك الاهتمام فى عدد من البحوث التي نشر بعضها باللغة الإنجليزية وبعضها الآخر باللغة العربية، إلى أن جذب عصر مايجى انتباه رءوف عباس، باعتباره يمثل بداية التحديث فى اليابان، وفيه تغيرت ملامح المجتمع اليابانى، ومنه نبعت الحركات السياسية والتيارات الفكرية التي حددت مسار التاريخ اليابانى المعاصر، فكانت دراسة رءوف عباس عن هذا العصر هى أول دراسة عربية عن تاريخ اليابان الحديث، وهى التي فتحت الباب أمام فرع جديد للدراسات التاريخية العربية ظل بعيداً عن اهتمام الباحثين العرب والهيئات العلمية العربية، وفتح المجال - فيما بعد- للاهتمام بالدراسات الآسيوية. وقد كانت فى واقع الأمر دراسة متعمقة للمجتمع اليابانى خلال تلك الفترة، اعتمدت على كم هائل من المصادر والمراجع اليابانية والإنجليزية.

وتضم هذه الدراسة العلمية الرصينة تمهيداً وستة فصول وخاتمة. تتناول التمهيد المجتمع الإقطاعى فى عصر طوكوجاوا (أوائل القرن السابع عشر) ويبين المؤثرات الداخلية والخارجية التي أدت إلى تفسخ هذا المجتمع، وأثر الضغط الغربى فى انفتاح اليابان على العالم الخارجى، وإقامتها علاقات دبلوماسية وتجارية مع الغرب. وقد بين رءوف عباس أن رياح التغيير التي هبت على المجتمع الإقطاعى اليابانى وعصفت به فى نهاية الأمر قد تحركت من على الأرض اليابانية ذاتها، وصاحبها الضغط الغربى على السلطة الإقطاعية لإنهاء العزلة السياسية التي فرضتها على البلاد والانفتاح على العالم الخارجى، وبالتالي كانت نهاية نظام الإقطاع والتمهيد لقيام نظام جديد يختلف عن سابقه فى سماته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية.

أما الفصل الأول فكان بعنوان "إرساء قواعد عصر جديد" استمر حتى عام 1912م أوضح فيه رءوف عباس أن التغيير كان فى شكل السلطة وشخص من يمسك بزمامها، وتغيير المجتمع من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك تغيير أداة الحكم والقوة التي تمسك بزمام الأمور فى البلاد، كذلك تغيرت الأفكار والعادات والقيم. وكان على القيادة الجديدة أن تواجه المشكلات الملحة، وعلى رأسها إصلاح مالية البلاد، ومقاومة الزحف الغربى، بعد أن

أدرك هؤلاء القادة الجدد فى العهد الجديد أن بلادهم تعاني تخلفاً فى مختلف الميادين، وخاصة الاقتصاد وأداة الحرب، فعملوا على اللحاق بالغرب فى هذين الميدانين، تماماً كما فعل محمد على فى مصر من قبل، عندما أدرك أن عظمة الدول الغربية وقوتها إنما ينبع من تفوقها فى المجالين الاقتصادى والعسكرى.

وقد اتخذ قادة النظام الجديد من شعار "إثراء الدولة وتقوية الجيش" الذى رفعوه فى تلك المرحلة دليلاً للعمل على النهوض بالبلاد. ولتحقيق ذلك كان على النظام الجديد أن يثبت أقدامه فى البلاد بالقضاء على بقايا القوى المؤيدة للنظام القديم، وكذلك توطيد أقدامه فى الأقاليم التى كانت لا تزال تمارس سلطاتها الإقطاعية. وهذا ما فعله محمد على أيضاً عندما قام بالقضاء على المماليك والنظام القديم، كما تخلص من المعارضة الوطنية الممثلة فى المشايخ والعلماء، وبالتالي فقد ثبت أقدامه فى البلاد.

وقد مست إصلاحات النظام الجديد فى اليابان النواحي الإدارية والمالية، وأدت إلى إلغاء النظام الإقطاعى، وتعديل النظام الطبقي بما يتلائم مع الأوضاع الجديدة كذلك مست هذه الإصلاحات النظام القضائى ونظام الجيش والبحرية، وإقامة نظام تعليمى حديث على النسق الغربى الفرنسى، وفقاً لما حددته لائحة عام 1872م، وبدأ الاهتمام بأساليب التربية الألمانية التى تؤمن بأن هدف التعليم خلق الإدارة المستنيرة القادرة على التمييز بين الصواب والخطأ. وكان الطلاب يقيمون فى مدارس داخلية ويحيون حياة شبه عسكرية، ومن شأن ذلك أن يذكرنا بما فعله نظام محمد على التعليمى فى مصر من قبل. وقد أولت حكومة مايجى - كما يقول رءوف عباس - تعليم البنات اهتماماً خاصاً، وأوفدت بعثة من خمس بنات إلى أمريكا، كما افتتحت أول مدرسة للبنات بطوكيو عام 1872م لتعليم البنات، وهو العام نفسه الذى افتتحت فيه حكومة الخديوى إسماعيل أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر الحديثة.

وتتاول الفصل الثانى، الإصلاح الزراعى وأثره فى المجتمع الريفى حيث أوضح رءوف عباس أن الإصلاح الزراعى الذى صاغته حكومة مايجى ونفذته كان بالغ الأثر فى إحداث ظواهر اجتماعية نجمت عنه مثل: بداية تكوين سوق العمل، تكوين السوق الوطنية وتحديدها فى إطار معين، وإيجاد فائض سكانى له سمات خاصة انفردت بها اليابان دون غيرها من البلاد، ونمو الطبقة العاملة، واكتساب عمل المرأة طابعاً لم يكن له من قبل.

وكانت أولى هذه الإصلاحات الزراعية وأهمها تتمثل في استقرار الملكية الفردية، وهو يذكرنا بما حدث في مصر من تطورات في هذا الشأن منذ عصر "محمد سعيد باشا" وحتى بدايات الاحتلال البريطاني عندما استقرت الملكية الفردية في مصر عام 1891م.

أما الفصل الثالث فقد تعرض فيه لحركة التصنيع ونمو الرأسمالية، بعد أن توافرت في عصر مايجي الشروط اللازمة لنجاح حركة التصنيع، من رأس المال والعمل، ووجود نظام للإنتاج وتداول السلع، وتقسيم العمل، وتوافر حد معين لتراكم رأس المال في أيدي المنتجين، ووجود عرض متدفق من العمل الحر، يعرض للبيع في سوق العمل لقاء أجر تحدده ظروف العمل. وقد بين رءوف عباس أن الصناعة اليابانية الحديثة استطاعت أن تبلغ بإنتاجها حد القدرة على منافسة منتجات البلاد الأوروبية في السوق المحلية والسوق الخارجية وتكوين ما عرف (بالكارتلات) للسيطرة على تلك الصناعة، مثلما كان يحدث في الغرب حيث جرت عادة رأس المال الكبير على النمو عن طريق ابتلاع رؤوس الأموال الصغيرة، وخاصة عند وقوع الأزمات الاقتصادية وما يصحبها من تضخم.

أما الفصل الرابع، فقد خصصه رءوف عباس للتوسع الخارجي، مشيراً إلى أن السياسة الإمبريالية التي انتهجتها حكومة مايجي والتي اتخذت شكل التوسع على حساب كوريا والصين، كانت تهدف في الأساس إلى إيجاد سوق خارجية ملائمة لتصريف منتجات الصناعة اليابانية الحديثة، وإتاحة فرصة النمو السريع أمام رأس المال الياباني. فالتوسع الخارجي لليابان كان بهدف الحصول على مطالب وامتيازات في آسيا وخاصة المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية وكان المجال هنا كوريا والصين ومنشوريا، مما ترتب عليه اندلاع العديد من الحروب بين اليابان وجيرانها بالإضافة إلى الحرب اليابانية الروسية وهذا الوضع، وتلك السياسة الخارجية لليابان تشبه - إلى حد ما - ما فعله محمد علي في حروبه الخارجية، بهدف إيجاد أسواق خارجية لتصريف المنتجات الوطنية، فكان غزو السودان وحروبه في بلاد الشام والجزيرة العربية لتحقيق أهداف اقتصادية واستراتيجية.

استعرض رءوف عباس في الفصل الخامس الحياة السياسية في هذه الفترة موضوع الدراسة، حيث بين أن صناعات القرار في نظام مايجي قد استقرت على اختيار النموذج الغربي كإطار للدولة الحديثة، وهنا واجهتهم مشكلة الاختيار بين دولة ليبرالية ديمقراطية، أو دولة

تكنوقراطية يستند الحكم فيها إلى بيروقراطية مركزية، وكان النموذج الأخير للدولة أكثر تقبلاً عندهم، فهو يهيئ للسلطة فرصة إجراء ما تشاء من إصلاحات دون أن تعرقل جهودها عقبات تأتي من جانب المجالس النيابية، كما أن الحكم المطلق والسلطة المركزية أكثر قبولاً لدى اليابانيين بحكم تراثهم الثقافى والسياسى. وهو يشبه ما حدث فى مصر طوال القرن التاسع عشر منذ عصر محمد على ومن أتى بعده حتى عهد الاحتلال وفترة السيطرة البريطانية (1882 - 1914م) حيث كان الحكم أوتوقراطياً والمجالس النيابية صورية.

وبالرغم من النظام السياسى الذى اختارته اليابان خلال هذه الفترة، إلا أن ذلك لم يمنع نشاط المعارضة فى المطالبة بالدستور وإنشاء مجلس نيابى حقيقى، ونشوء أحزاب سياسية، وهو ما حدث بالفعل، لتبدأ مرحلة جديدة فى الحياة السياسية فتحت المجال أمام تشكيل حكومات حزبية مسئولة أمام الدايت "البرلمان اليابانى".

وقد أفرد رءوف عباس الفصل السادس والأخير للحياة الفكرية، حيث بين أن عصر مايجى قد شهد ازدواجية فى الحياة الفكرية بين الفكر التقليدى القديم الذى أخذ روافده من التراث اليابانى، وبين الأفكار الغربية الوافدة على اليابان من الغرب نتيجة للاحتكاك بالحضارة الغربية فى مرحلة التحديث. ويعد "فوكوزاوا" من أبرز رواد الفكر الليبرالى فى عصر مايجى. وقد ركز "فوكوزاوا" فى كتاباته على أهمية التجربة كسبيل للتقدم، لأن "التقدم لا يتحقق إلا من خلال مئات وآلاف التجارب" وقد تقدمت المدنية والنظم السياسية من خلال العديد من التجارب وقد خلص رءوف عباس بأن الحياة الفكرية فى عصر مايجى كانت تموج بتيارات عديدة، بعضها يعكس المؤثرات الغربية كالليبرالية والمسيحية والاشتراكية، وهى تيارات غلبت على الحياة الفكرية فى النصف الأول من ذلك العصر، فى مرحلتى التحول والاستتارة وتقوية الجيش وإثراء الأمة. وتحول التيار القومى فى النصف الثانى من عصر مايجى إلى اتجاه "شوفينى" يستمد ركائزه من الفكر التقليدى القديم.

لقد كانت المهمة العلمية اليابانية - على حد قوله - انقلاباً فى حياته العلمية ففضلاً عن مساهمتها فى تكوينه المنهجى، وفى التاريخ المقارن، وتعمقه فى دراسة تاريخ اليابان فى القرن التاسع عشر، فإنها أكسبته مهارات بحثية جديدة، ومنحته فرصة نادرة للتعامل باللغة

الإنجليزية في المجال الأكاديمي، وفي الكتابة بها. كما أتاحت له فرصة الاحتكاك بالمجتمع الياباني والتعرف إلى ثقافته، والإلمام بمبادئ لغته.

### التنوير بين مصر واليابان

ومن خلال تلك الدراسة المعمقة للمجتمع الياباني في عصر مايجي زاد اهتمام رءوف عباس بالفكر التنويري ورائده "فوكوزاوا يوكيتشي" والتي ميز رءوف عباس بين ثلاث مراحل تطور خلالها فكره: المرحلة الأولى (1862 - 1869م) ركز فوكوزاوا خلالها على التعريف بالحضارة الغربية من خلال بعض الكتب التي ذاع صيتها في تلك الفترة. وفي المرحلة الثانية (1869 - 1877م) اهتم فوكوزاوا بإبراز ما يمكن أن تفيد به اليابان من حضارة الغرب وعلومه. أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فتمتد من عام 1877 حتى وفاته عام 1901م، ووضع فيها صيغة يابانية للفكر الحديث في محاولة للتوفيق بين الوافد والموروث من الأفكار.

وقد لاحظ رءوف عباس بعض أوجه الشبه بين فكر فوكوزاوا وفكر "رفاعة الطهطاوى" رائد الفكر العربى الحديث، ومن هنا كانت فكرة كتابة دراسة مقارنة لفكر هذين الرائدتين، وقد استطاع رءوف عباس أن يجمع التراجم الهامة لأعمال فوكوزاوا والتي نشرت بالإنجليزية بالإضافة إلى أعمال رفاعة الطهطاوى، وبقي - على حد قوله - إعداد الدراسة وما يحتاجه من مراجعة المتخصصين في تاريخ الفكر الياباني الحديث، فكانت دعوة معهد "دراسات لغات وحضارات آسيا وأفريقيا" التابع لجامعة طوكيو، كانت دعوته لرءوف عباس كأستاذ زائر لمدة عام (1989 - 1990م) تفرغ خلاله تماماً لإعداد هذه الدراسة، مع استشارة أهل الاختصاص في مراحل الكتابة وعقد حلقات نقاشية في جامعات "طوكيو" و "إيباراكي" و "أوساكا" لطرح ما توصل إليه رءوف عباس من نتائج ومناقشتها مع كبار الأساتذة المتخصصين في تاريخ الفكر الياباني وأساتذة تاريخ الشرق الأوسط بالجامعات اليابانية، وبعد أن تم ذلك كله صدرت الدراسة في طوكيو بالإنجليزية في نوفمبر من عام 1990م.

ولما لم يكن قد تعرف على هذه الدراسة في وطننا العربى سوى نفر قليل ممن أتاحت لهم قراءتها بالإنجليزية، على حين إهتم بها الباحثون اليابانيون وكانت مثار تعليقات وعروض نقدية ظهرت في مجلات علمية يابانية عديدة، كما نوهت بعض الصحف في صفحاتها

الثقافية إلى هذه الدراسة ومدى أهميتها، لذلك كان قرار رءوف عباس بإصدار طبعة عربية من الكتاب لا تكون مجرد ترجمة للطبعة الإنجليزية حتى يطرح على القارئ العربي من منظور يتوافق مع الثقافة العربية واهتماماتها. فكان صدور الطبعة العربية في عام 2001 من سلسلة مختارات ميريت للنشر والمعلومات بالتعاون مع مؤسسة اليابان Japan Foundation التي ساهمت في مشروع النشر ودعمته.

وقد استهل رءوف عباس الدراسة بتمهيد حول الإطار التاريخي لمصر واليابان في العصر الحديث، والتطورات التي مرت بكل منهما من أجل الوصول لبناء الدولة الحديثة.

وتناول في الفصل الأول حياة كل من الطهطاوى وفوكوزاوا وتكوينهما الثقافى، مشيراً إلى دورهما المتميز في حياة مجتمعيهما من خلال ما قدماه من جهد وعطاء في المجالات الثقافية والعلمية والسياسية، ولكن ذلك لم يكن يعنى - كما يقول رءوف عباس - تماثل الشخصيتين تماثلاً تاماً فقد اعتمد فوكوزاوا في ثقافته على جهده الفردى، وكان في اتصاله بالثقافة الصينية التقليدية أو بالعلوم الهولندية أو حتى باللغة الإنجليزية اتصالاً سطحياً على حين كان الطهطاوى أوفر حظاً من الغوص في الثقافتين الإسلامية التقليدية من خلال دراسته في الأزهر وكذلك الغوص في الثقافة الأوروبية من خلال أعمال مفكرى عصر التنوير ومن خلال تجربة المعاشة الطويلة أيام بعثته إلى فرنسا وليس مجرد الزيارات الخاطفة على نحو ما فعل فوكوزاوا كان تقديمه للمجتمع الغربى في "تخليص الإبريز" بالغ العمق مقارنة بالعمل الذى صنع شهرة فوكوزاوا "أمور غربية".

وبالرغم من ذلك، فقد تناول فيه النظام السياسى الجديد، حيث بين رءوف عباس مدى اهتمام كل من فوكوزاوا والطهطاوى في مجال الفكر السياسى بإعادة النظر في الأفكار التقليدية التى تبرز سلطة الحاكم والحكومة من أجل دفع عجلة التقدم إلى الأمام فى تكوين الدولة الحديثة، وكيف واجه كل منهما مهمة وضع إطار النظام السياسى الجديد الذى اقتضته ظروف بلديهما - اليابان ومصر - فى مرحلة التحول إلى الدولة الحديثة وقد أوضح رءوف عباس أن كلاً منهما استقى فكره من واقع ظروف مجتمعه وصاغ إطار فكره السياسى على ضوء تلك الظروف والمعطيات الاجتماعية والثقافية الموروثة والمكتسبة فى بلده.

وفى الفصل الثالث، يحدثنا رءوف عباس عن النظام الاجتماعى الجديد التى دعت التغييرات التى شهدتها اليابان فى عصر مايجى، ومصر فى أواخر عصر محمد على، إلى ضرورة البحث عن أطر فكرية تواكب التغييرين الاقتصادى والاجتماعى فى مرحلة التحول وتعمل على فتح آفاق التطور أمام المجتمع، بعد أن أفرزت مشروعات التحديث نظاماً اجتماعياً جديداً، كنتاج للتطورات الاقتصادية، ولم تعد القيم التقليدية صالحة للتعامل مع تلك الظروف، ومن ثم أصبحت هناك حاجة ماسة إلى قيم جديدة كانت الشغل الشاغل لرواد التنوير، ومثل هذا الجانب ركناً أساسياً فى فكر كل من فوكوزاوا والطهطاوى فى سعيهما لبناء المجتمع الحديث فى بلديهما. ورغم أن أهداف فوكوزاوا والطهطاوى كانت متشابهة، غير أن كلاً منهما عالج مشكلة العلاقات الأسرية الجديدة من منظور يختلف تماماً عن صاحبه. بحكم اختلاف الظروف الموضوعية لليابان ومصر فى ذلك العصر.

أفرد رءوف عباس الفصل الرابع للتعليم والمعرفة الحديثة، حيث أوضح أن فوكوزاوا والطهطاوى كان لهما موقف محدد من المعرفة الغربية باعتبارها أساس التعلم، كما دعا كل منهما إلى تحقيق التوازن فى برامج التعليم بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، واتفقا على أن التعليم والمعرفة الحديثة هما مفتاح الطريق إلى الحضارة وأن العلم والتعليم يجب أن يحظيا برعاية الدولة؛ كما اتفقا على أن يكون التعليم العالى للصفوة (نخبوياً)، ولكن الطهطاوى كان أكثر ليبرالية وتقدماً من فوكوزاوا فيما يتعلق بتعليم البنات.

استعرض رءوف عباس فى الفصل الخامس والأخير الأسس التى يجب إتباعها لسلوك طريق التقدم والحضارة، فبين أن كلاً من فوكوزاوا والطهطاوى قد استقيا معظم أفكارهما المتصلة بالتاريخ والحضارة من كتابات المؤرخين الغربيين فكلاهما تأثر كثيراً بكتاب "جيزو" Guizot عن تاريخ الحضارة الفرنسية وقد أضاف إليه فوكوزاوا كتاب "باكل" عن تاريخ الحضارة فى إنجلترا. وقد قدر كل من فوكوزاوا والطهطاوى الحضارة الغربية تقديراً كبيراً وجعلا هدفيهما أن تلحق بلادهما بأعلى درجات الرقى الحضارى، ولكنهما لم يطرحا أفكارهما دون تحفظات. وكانت هناك خلافات جوهرية بين أفكار فوكوزاوا والطهطاوى فيما يتصل بتكوين الشكل الوطنى المتميز لحضارة بلادهما. فبينما سعى فوكوزاوا إلى صياغة نظام أخلاقى جديد من خلال ما أسماه "روح العصر" تمسك الطهطاوى بالقيم الخلقية

الإسلامية كإطار لا غنى عنه لعملية التطور الحضارى الحديث، غير أن الرجلين اتفقا على مبدأ الانتقاء عند الاقتباس من الحضارة الغربية. وهكذا صحبنا رءوف عباس - رحمه الله - فى رحلة علمية ودراسة عميقة استغرقت من وقته وجهده الكثير لرأئدين من رواد التنوير فى مصر واليابان، وهى دراسة مقارنة لم يتطرق إليها أحد من قبل.

### يوميات هيروشيما

أما يوميات هيروشيما (6 أغسطس - 30 سبتمبر 1945م) فهى تمثل - على حد قوله - وثيقة تاريخية إنسانية تصور أبعاد المأساة والآثار التى ترتبت عليها، وهى عبارة عن يوميات حرص على تدوينها شاهد عيان عاصر الحادث من بدايته صباح السادس من أغسطس 1945م من موقع المسؤولية كمدبر لمستشفى "مصلحة المواصلات" بالمدينة حتى آخر سبتمبر من نفس العام حين تسلمت إدارة المستشفى لجنة طبية أمريكية.

وقد نشرت اليوميات أول ما نشرت باللغة اليابانية بمجلة طبية، ثم جمعت فى كتاب نشر باليابانية وطبع عدة طبعات، وبعد ذلك ترجم الكتاب إلى الإنجليزية وطبع بها تحت عنوان "يوميات هيروشيما" فى عام 1955م.

وترجع صلة رءوف عباس بيوميات هيروشيما إلى عام 1972م عندما ذهب إلى اليابان أول مرة كأستاذ زائر، وهناك كانت رغبته فى مشاهدة هيروشيما ونجاساكي ليشهد - على حد قوله - آثار بصمات الإمبريالية والدمار الذى تركته هناك. وقد هز وجدانه الآثار التى رآها بمتحف "السلام" الذى يقع بالقرب من محطة سكة حديد هيروشيما، ويحمل بصمات الدمار الذى حاق بالمدينة. وهناك وقع فى يده كتاب "يوميات هيروشيما" وعن هذا يقول رءوف عباس: "فريط بحس دارس التاريخ بين شهادة المؤلف وآثار المأساة الماثلة أمامه، وعقد العزم على نقل هذه الوثيقة الإنسانية التاريخية إلى قراء العربية، فزرت هيروشيما ثلاث مرات خلال وجودى باليابان، طففت خلالها بأرجاء المدينة لأستطلع معالم المسرح الذى جرت عليه حوادث القتال، كما أعطتني زيارة مركز مرضى "الإشعاع الذرى" الذى يضم أنصاف الأحياء، أو أنصاف الموتى من ضحايا المأساة انطباعاً عن الأثر الذى تركه الحادث فى الناس".

والكتاب - على حد قوله - عبارة عن يوميات كان يكتبها المؤلف - الدكتور هاتشيا - يوماً بيوم أحياناً، أو يكتب حوادث بضعة أيام فى وقت واحد أحياناً أخرى إذا حالت مسؤولياته الجسام كمدير لمستشفى المواصلات بالمدينة عن متابعة الكتابة بصفة يومية وقد أكد المؤلف على أنه كان أميناً فى نقل الروايات التى سمعها فلم يزد عليها حرفاً، وفى التعبير عما شاهده دون مبالغة. وقد عبر بصدق بالغ - كما يقول رءوف عباس - عن التمزق النفسى الذى عاناه الشعب اليابانى بعد الهزيمة، كما أفرد سطوراً عديدة لأعراض مرض الإشعاع الذرى التى كانت مجهولة له ولمساعديه له فى ذلك الحين.

ولذلك حرص رءوف عباس - كما أشرنا من قبل - على زيارة هيروشيما بترتيب خاص مع قسم التاريخ بجامعةها، فبهره ما رآه فى "متحف السلام" المقام على حديقة السلام، الذى يعبر تعبيراً صادقاً عن هول الجريمة التى ارتكبتها "زعيمة العالم الحر" ضد شعب أنهكته الحرب وكان يتفاوض من أجل الاستسلام، لمجرد اتخاذه معملاً لتجربة آثار السلاح الجديد.

وإلى جانب هذا الكتاب الذى اشتراه رءوف عباس من منفذ بيع الكتب فى المتحف، حصل على كتيب بالإنجليزية يضم بعض شهادات من نجوا من الموت من سكان المدينة وعندما قرأ اليوميات والشهادات، اكتشف أن ما يقال عن آثار السلاح النووى على البيئة والإنسان يتضاءل أمام حقيقة ما حدث.

ولما كانت اليوميات والشهادات قد ترجمت إلى سبعة عشر لغة حية، فقد اعتزم رءوف عباس - كما أشرنا - على أن يجعل العربية اللغة الثامنة عشر التى تنقل إليها، ليقينه أن القارئ العربى لا بد وأن يقف على حجم الجرم الذى ارتكبه الولايات المتحدة الأمريكية فى حق الإنسانية، ويساهم فى كشف الستار عن زيف الدعاوى التى يوجهها البعض عنها فى الوطن العربى.

لم يشأ رءوف عباس أن يقدم نص الكتاب دون أن يمهد للقارئ العربى الموضوع وأفرد فصلاً بعنوان "الطريق إلى هيروشيما" بين فيه الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى أفرزت النظام الفاشى فى اليابان، والأطماع الإمبريالية التى ورطت اليابان فى الحرب العالمية الثانية، والآثار التى ترتبت على الهزيمة، ومبررات استخدام الولايات المتحدة الأمريكية للقنبلة الذرية

ضد اليابان بالذات رغم انهيار المقاومة العسكرية اليابانية وفيما عرف "بمعركة الباسيفكى" حتى تتضح معالم الصورة وتتجلى أمام القارئ جوانب هذه المأساة التاريخية. ومن خلال هذا العرض لتجربة رءوف عباس - رحمه الله - فى اليابان منذ مطلع سبعينيات القرن العشرين، يتضح لنا أنها لم تأت بثمارها على رءوف عباس فحسب ولكنها أثرت المكتبة التاريخية بدراسات متعمقة وبحوث جديدة حول قضايا المنهج وإشكاليات الكتابة التاريخية، ومنهج الدراسات المقارنة، كما أطلعت القارئ العربى بوجه عام، والمصرى بوجه خاص على تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، والذي كان من شأنه أن يمثل فتحاً جديداً لمن يتطرق إلى دراسة تاريخ المجتمعات الآسيوية بوجه عام وتاريخ اليابان بوجه خاص.